اسم الدرس : تفسير سورة الأعراف (١٦) | الآيات [١٤٥ : ١٥١]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

نستكمل بإذن الله ﷻ مجالس تدبر تفسير سورة الأعراف. هذه المجالس التي أسأل الله ﷻ أن يتقبلها منّا وأن يجعلها خالصةً لوجهه ﷻ، وأن يجعلنا برحمته وكرمه وفضله من أهل القرآن؛ الذين هم أهله وخاصته -سبحانه وتعالى-.

توقفنا عند قوله ﷻ: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}[الأعراف ١٤٥].

المرة الماضية: تكلمنا عن هذه اللحظات التي مرَّ بها موسى -عليه السَّلام-، هذه اللحظات التي لا توصف، والتي لا يستطيع بشر أن يصف شعور موسى -عليه السَّلام-؛ كيف كان يشعر في هذه اللحظات وهو يسمع كلام الرب ﷻ! ثم ازداد شوقه -عليه السَّلام- ليرى الرب ﷻ، وطلب هذا الطلب، وجاء الرد واضحًا صريحًا: أنّ كل البشر لهم نهاية في القدرات في الدنيا {قَالَ لَنْ تَرَانِي}[الأعراف ١٤٣].

أي أنّ: البصر، العقل، السمع... كل هذه الأدوات التي مَنَّ الله ﷻ على الإنسان بها؛ هذه الأدوات لها نهاية، لها مقدرة قصوى لا تتعداها، وأيضًا {لَنْ تَرَانِي}[الأعراف ١٤٣] تشير إلى أن أيضًا عقل الإنسان في الدنيا لا يستطيع أن يستوعب كل شيء، فتجد أن بعض الناس يُطالب، ويسأل الرب ﷻ، ويريد الله ﷻ أن يُفصِّل له كل الأقدار لماذا حدثت؟ ويفصل له كل شيء؛ وهذا فوق الطاقة العقلية للإنسان، كما أنّ رؤية الرب في الدنيا فوق الطاقة البصرية للإنسان، فكذلك هناك أشياء من الغيب فوق الطاقة العقلية للإنسان، فيتلقاها مُجملة، ويُسلِّم، ويوقن بأمر الله ﷻ.

ثم مَنَّ الله ﷻ على موسى -عليه السَّلام- بهذه التجربة التي رأى فيها بعينيه -عليه السَّلام- كيف اندكَّ الجبل حينما تجلى له الرب ﷻ!

ثم علَّمه الله ﷻ أن يرضى بقَسْمِه، وأن يرضى بنصيبه، وقال له: {فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ} واشكر على هذه النعمة {وَكُن مِّنَ الشَّٰكِرِينَ}[الأعراف ١٤٤].

ثم أعطاه التوراة، وكتب له الألواح، فقال له ربنا ﷻ: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ}[الأعراف ١٤٥] أي: كتبنا له في ألواح التوراة، كتب الله ﷻ التوراة بيده ، وأنزل هذا الكتاب (التوراة).

إنزال التوراة يشبه التصوّر الذي ذكرناه عند تفسير قوله –سبحانه وتعالى–: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى}[الأعراف ١٠٣]، لذلك إنزال التوراة قيل: إنّه كان علامة فاصلة في التاريخ، كما ذكرنا بعد غرق فرعون، وأن من بعد نزول التوراة؛ لم يعد هناك عذاب أو إهلاك عام.

لذلك وأنت تجد؛ كيف أنَّ الله ﷻ يُبَيِّن لنا مدى احتياج الناس إلى الوحي، وسنتطرق إن شاء الله ﷻ في هذا المجلس إلى هذه النقطة، حينما بَيَّن الله ﷻ احتياج الناس إلى الوحي، وأن الناس لا يَصْلُحون ولا تَصْلُح حياتهم بدون وحي.

بدأ ربنا ﷻ في سورة المائدة: من بداية {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ}[المائدة ٤٤] ثم بعد ذلك الإنجيل، ثم بعد ذلك القرآن؛ أنه مهيمن على هذه الكتب السابقة.

قال ﷻ: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ}[الأعراف ١٤٥]

بدأ ربنا –سبحانه وتعالى–: **بالموعظة قبل التفصيل**.

- قيل: "الموعظة: الزجر، والتذكير بعظمة الله ﷻ وبالدار الاخرة"
- ثم بعد ذلك قال: {وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ}[الأعراف ١٤٥]

قال كثير من أهل العلم: "التفصيل لكل شيء أي: الأحكام: الحلال، والحرام، والأوامر، والنواهي".

فهكذا الإنسان يحتاج إلى الموعظة أولًا، ثم بعد ذلك يسمع أحكام الحلال والحرام، كما أخبرتنا أُمُّنا عائشة –رضي الله عنها– كما في البخاري: (أول ما نزل من القرآن المفصل فيه ذكر الجنة والنار) ثم بعد ذلك نزلت الأحكام: الأوامر، والنواهي (ولو كان أول ما نَزَل: لا تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقالوا: نشرب)[1] فبَيَّن الله ﷻ: أنّ الانسان يحتاج إلى مقدمة وتهيئة من الوعظ؛ حتى يتقبّل الأحكام الشرعية.

[1] [عن عائشة أم المؤمنين:] إنِّي عِنْدَ عائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْها، إذْ جاءَها عِراقِيٌّ، فَقالَ: أيُّ الكَفَنِ خَيْرٌ؟ قالَتْ: ويْحَكَ، وما يَضُرُّكَ؟ قالَ: يا أُمَّ المُؤْمِنِينَ، أرِينِي مُصْحَفَكِ؟ قالَتْ: لِمَ؟ قالَ: لَعَلِّي أُؤَلِّفُ القُرْآنَ عليه، فإنَّه يُقْرَأُ غيرَ مُؤَلَّفٍ، قالَتْ: وما يَضُرُّكَ أيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟ إنَّما نَزَلَ أوَّلَ ما نَزَلَ منه سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيها ذِكْرُ الجَنَّةِ والنَّارِ، حتَّى إذا ثابَ النَّاسُ إلى الإسْلامِ نَزَلَ الحَلالُ والحَرامُ، ولو نَزَلَ أوَّلَ شيءٍ: لا تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقالوا: ... المزيد
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٩٩٣ • [صحيح]

هذه (الموعظة) تُذَكِّر الإنسان: بضعفه، وباحتياجه إلى الرب، وبالدار الآخرة. فبدأ ربنا ﷻ قال: {مِن كُلِّ شيء مَّوعِظَة}[الأعراف ١٤٥] والموعظة (منوعة)، {مِن كُلِّ شيء مَّوعِظَة}: في الموت، وفي عظمة الله ﷻ، والجنة، والنار...

{وتَفْصِيلا لِكُلِّ شَيْءٍ}[الأعراف ١٤٥] كما قال ربنا ﷻ: {مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ}[الأنعام ٣٨] على أحد الأقوال بأن الكتاب هنا هو: القرآن، وقيل: اللوح المحفوظ.

وأيضًا قال ربنا ﷻ في التوراة: {وتَفْصِيلا لِكُلِّ شَيْءٍ}[الأعراف ١٤٥] هنا يقولون: "إن عموم كلمة (كل شيء) هل يُراد بها أنَّ كل الأشياء مذكورة في التوراة؟ كل شيء، الدنيا كلها؟ لا، قيل: "هذا عموم يُرَاد به الخصوص"، أي: كل شيء يحتاج إليه البشر في هذه اللحظة. فإذا احتاجوا إلى معرفة مُراد الله ﷻ في مسألة ما؛ عادوا إلى التوراة {وتَفْصِيلا لِكُلِّ شَيْءٍ}[الأعراف ١٤٥].

فقال ربنا لموسى -عليه السَّلام-: {فَخُذْها بِقُوَّةٍ وأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأحْسَنِها}[الأعراف ١٤٥]، وكأنَّ هناك فارق بين أخذ النبي -أو الذي يريد أن يسير على هدي النبي أو ورثة الأنبياء- وبين بقية الناس. فالنبي -وقال بعض أهل العلم، لا سيما المتأخرين: أو ولي الأمر- الذي يُطبّق الشرع، يُقال له: {فَخُذهَا بِقُوَّةٍ}[الأعراف ١٤٥] فكأنّ ولي أمر المسلمين يُطبّق الأمر الزائد على عموم الناس.

{فَخُذْها بِقُوَّةٍ وأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأحْسَنِها}[الأعراف ١٤٥] ما معنى {فَخُذْها بِقُوَّةٍ}؟ (الهاء) تعود على التوراة (الألواح)، {فَخُذْها بِقُوَّةٍ} قيل: "بجد وعزيمة"، وقيل:" بدون ملل أو انقطاع"، أي: الإنسان يعزم على ألَّا ينقطع.

عندما يكون الإنسان مقبلًا على شيء، ويكون عازمًا، وناويًا، ومصممًا، ويقبل على شيء بكليته؛ يُوَفَّق لإكمال هذا الشيء، لكن حينما يقوم الإنسان لفعل شيء وهو متوانٍ، متكاسل، يفكِّر، ويُقدِّم رجلًا، ويؤخر أخرى؛ غالبًا لا يتم هذا الأمر!

مثلًا تجد الإنسان الذي يريد أن يستيقظ للفجر، إذا كان عازمًا، وهيّأ الظروف لنفسه لأن يستيقظ، فغالبًا يستيقظ، ومثل: الذي لديه موعد هام، عندما ينام وهو عازم على الاستيقاظ، فهناك عزيمة في الداخل، هذا معنى {فَخُذهَا بِقُوَّة}[الأعراف ١٤٥]، بجد وعزيمة؛ أنَّ الأمر جد، وليس بالهزل، {إِنَّهُ لَقَول فَصل * وَمَا هُوَ بِالهَزل}[الطارق ١٣-١٤].

حينما يتعامل الإنسان مع الشرع بجد وعزيمة، فيأخذ بالحذر، ويُقبل على شرع الله ﷻ عازمًا، مستعينًا بالله ﷻ على التطبيق، لا يسمع ليستمتع، ولكن يعلم؛ أنَّ العلم يقتضي العمل، فهو يسمع ليُطبق.

فقال ربنا ﷻ لموسى: {فَخُذهَا بِقُوَّة}[الأعراف ١٤٥] لا بد أن تكون أنت النموذج البشري الذي يَصْلُح للاقتداء؛ لأن الوحي يحتاج الناس أن يروْه في صورة بشرية تسير أمامهم.

لذلك سورة الفرقان التي بدأت ببركة الفرقان {تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبدِهِ}[الفرقان ١] خُتِمَت بنموذج بشري يُطبِّق الفرقان؛ فأصبحوا فرقانًا في الواقع، {وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرضِ هَونا}[الفرقان ٦٤].

فكذلك حينما نزلت التوراة يخبر الله ﷻ موسى: أنه لا بد له أن يُطبق هذه التوراة، وأن يأخذها بقوة حتى تَصْلُح للتطبيق، فالمناهج تصلح، ويقتنع بها الناس، وتصلح للتطبيق إذا وُجِد من يُنَفِّذُها، وهكذا كان النبي ﷺ خُلُقَه القرآن، وكان الصحابة نموذجًا حيًا لتطبيق القرآن.

فقال ربنا -سبحانه وتعالى-: {فَخُذهَا بِقُوَّة وَأمُر قَومَكَ}[الأعراف ١٤٥] ليس كل بني إسرائيل على المستوى نفسه في التطبيق (بقوة)؛ لكن الأمر للعموم، {وَأمُر قَومَكَ يَأخُذُوا بِأَحسَنِهَا}[الأعراف ١٤٥]: اختلف العلماء ما معنى (أحسنها)؟ هل يوجد في كلام الله -لأن التوراة من كلام الله التي لم تُحرّف- حسن وأحسن؟ أم هذه الدلالة تعني أنَّ هناك أشياء ليست بحسنة؟

فاتفق أهل العلم: أنّه لا يوجد شيء في التوراة، أو في كلام الله ﷻ ليس بحسن، إذًا ما معنى كلمة (بأحسنها)؟ قيل: "أنَّ أحيانا يُخَيِّر الله ﷻ العباد مثلًا بين العفو والقصاص؛ هو مُخيَّر إما أن يقتص ويأخذ حقه، أوأن يعفو، فأخبِر بني إسرائيل: أنَّ الأفضل لهم؛ أن يأخذوا بالأحسن دائمًا" {الَّذِينَ يَستَمِعُونَ القَولَ فَيَتَّبِعُونَ أَحسَنَهُ}[الزمر ١٨].

وقال بعضهم: "إنَّ التوراة تحتوي على أوامر لا بد أن يطبقوها، ونواهٍ ينتهوا عنها"، فكلمة {يَأخُذُوا بِأَحسَنِهَا}[الأعراف ١٤٥] أي: "يفعلوا الأوامر، وينتهوا عن النواهي"، وهذا اختيار الطبري -رحمه الله-

وقال بعضهم: "إنَّ كلمة (أحسن) أحيانًا تأتي على صيغة: (أفعل تفضيل) يقولون في اللغة: أحيانًا تأتي "مسلوب المفاضلة" أي: لا يدل على أنَّ هناك شيء أفضل من شيء.

لذلك الذي اختار أنَّ صلاة الجماعة فرض عين -وهناك خلاف بين أهل العلم في ذلك- على الرجال، إذًا كيف يتصرف مع حديث النبي ﷺ: (صلاة المرء في جماعة أفضل -أو (تَفضُل) على اختلاف الرواية- من صلاته -أو: صلاة الفذ- بسبع وعشرين درجة)[٢] فكلمة (أفضل) تعني: الاثنين في درجة من الفضل، لكن صلاة الجماعة أعلى، فالذي ترك (أفعل تفضيل) على حالها قال: إن صلاة الجماعة سنة مؤكدة.

والذي قال: لا، هذا مسلوب المفاضلة، وأنّه موجود في القرآن، أي: أن هذا الأسلوب لا يعني المفاضلة، مثل أن تقول: الجنة خيرٌ من النار، لا يعني هذا: أن الجنة والنار يستويان في أصل الخيرية ولكن الجنة تَفضُل النار، ولكن المعنى المقصود؛ أن الجنة أفضل مطلقًا من النار ولا يستويان في الخيرية.

فلذلك قالوا معنى كلمة {وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا}[الأعراف ١٤٥] أي: يعملوا بها لحسنها، أي: أنّ كل ما في التوراة أمر حسن؛ فليفعلوا كل ما في التوراة، وليأخذوا الدين مجملًا على بعضه ولا يفرّقون {وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا}.

- **إذًا**؛ القول الأول في ((أحسن)): أنَّ أحيانًا يُخيَّر الإنسان؛ فليختر الأحسن.
- والقول الثاني: الذي اختاره الطبري: "فعل الأوامر وترك النواهي".
- والقول الثالث: أنَّ كل ما في التوراة حسن، وأنّ هذا مسلوب المفاضلة.

{سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}[الأعراف ١٤٥] ما معناها؟

انتبهوا معي اليوم؛ لأن الآيات صعبة اليوم، وفيها اختلافات كثيرة بين أهل العلم، وسنحاول أن نذكر هذه الاختلافات.

---

[٢] [عن أبي هريرة:] تَفْضُلُ صَلاةُ الجَمِيعِ صَلاةَ أَحَدِكُمْ وحْدَهُ، بخَمْسٍ وعِشْرِينَ جُزْءًا، وتَجْتَمِعُ مَلائِكَةُ اللَّيْلِ ومَلائِكَةُ النَّهارِ في صَلاةِ الفَجْرِ ثُمَّ يقولُ أبو هُرَيْرَةَ: فاقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: {إنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كانَ مَشْهُودًا} [الإسراء: ٧٨] قالَ شُعَيْبٌ: وحدَّثَنِي نافِعٌ عن عبدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ، قالَ: تَفْضُلُها بسَبْعٍ وعِشْرِينَ دَرَجَةً.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٤٨ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٦٤٨، ٦٤٩)، ومسلم (٦٤٩)

ما معنى {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}؟

- اختار الطبري: أنَّ {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} أي: جهنم، وأنَّ هذا تهديد: إن لم تطبقوا شرع الله ﷻ؛ أدخلتكم النار، {وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا} وإن لم يفعلوا؛ سأجعلهم يرون النار رأي العين {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} وهي جهنم، وهذا مروي عن بعض السلف واختاره الإمام الطبري.
- وقال بعض أهل العلم في قوله تعالى: {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}[الأعراف ١٤٥] أي: سأريكم كيف فعلت بمن سبقكم وأعرضوا عن الشرع!

الآن، يحاول أهل العلم أن يجدوا ما العلاقة بين تطبيق الشرع {وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا} وبين كلمة {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}؟ قال الطبري: "هذا تهديد بالنار لمن أعرض عن شرعه" إذًا، طَبِّقوا الشرع، وإن لم تُطبِّقوه سوف تدخلون النار.

- بعض أهل العلم قال: لا، {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} أي: (دار) المقصد بها في الدنيا، سأريكم كيف فعلت بالذين رفضوا شرعي، وأعرضوا عن آياتي، وكيف عذبتهم في الدنيا! وسوف تمرون على أقوام أهلكتهم، ولقد رأيتم ما فعلت بفرعون. فكلمة {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} أي: كيف فعلت بمن سبقكم، وأعرضوا عن شرع الله ﷻ.
- وقيل {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} أي: سأعطيكم دار الفاسقين؛ سترونها، وتصبح ملككم، وبشرى بالتمكين في الشام، والعلاقة: أنَّ التمكين لا يأتي إلا بتطبيق الشرع، فإن أخذتم بأحسن ما في الشرع، وطبقتم الشرع الذي معكم؛ وصلتم إلى التمكين، ووصلتم إلى أرض الشام، {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} أي: سأعطيكم دار الفاسقين، وكأن هناك إشارة أن هذه (الإراءة) {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} سيكون بمجهود بسيط منكم، إن أنتم طبقتم الشرع.

إذًا؛ كلمة {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} تحتمل ثلاثة أقوال:

- الأول: جهنم.
- الثاني: دار الفاسقين أي: الذين أعرضوا عن الشرع، وكيف عاقبهم الله ﷻ في الدنيا كبقايا الأمم التي أهلكها الله ﷻ.
- الثالث: سأمكن لكم، وأعطيكم دار الفاسقين، فتكون ملكًا لكم، وأنزعها من القوم الفاسقين.

{وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}[الأعراف ١٤٥].

من الممكن أن يتعجب أحدٌ من أنَّ الله ﷻ فصَّل كل شيء {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ}[الأعراف ١٤٥]، وتكررت كلمة (كل شيء) لتدل على: قمة التفصيل في التوراة، ومسألة التفصيل في التوراة مهمة جدًا؛ لأن هناك قول سيأتي معنا بإذن الله ﷻ المرة هذه أو المرة القادمة بإذن الله ﷻ؛ أن هذا التفصيل رُفِع على أحد الأقوال.

لكن الشاهد أن التفصيل واضح جدًا مع الموعظة، الوعظ، الأحكام: الحلال، والحرام، فقد يسأل الإنسان ويتساءل: كيف يكون هذا التفصيل واضحًا، جليًّا، بيّنًا، ثم يُعرِض الناس عن الشرع؟!

لأنّ أحيانًا كما ذكرت لكم: كثير من الناس يعتقد أن السبب الرئيسي للإعراض؛ عدم وضوح الآيات! وهذا أمر متكرر، وتكرر في سورة الأنعام كثيرًا، كثير من الناس يتمنى إن كان هناك آيات بينات واضحات فسيؤمن الناس أجمعون! وهذا خلل في الفهم؛ لأنّ الآيات تكون واضحات، ثم يُعرض الناس عنها مثل: قوم صالح -عليه السلام- عندما عقروا الناقة.

فهنا يخبرنا ربنا -سبحانه وتعالى- أنه وبعد هذا التفصيل قد يُعرض أناس عن شرع الله ﷻ، لماذا؟

بسبب أن الله ﷻ صرفهم عن الآيات {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...}[الأعراف ١٤٦]. تكون الآية واضحة أمامه ثم يُصرف عنها، لماذا؟ هل ظلمه الله ﷻ؟!

أبدًا، ختام الآية {ذلِكَ بِأَنَّهُمْ...} باء السببية: {ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}[الأعراف ١٤٦].

ونجد أن هذا المقطع -كما ذكرت من قبل- تكرر سابقًا مع فرعون وقومه لأنهم {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}[الأعراف ١٣٦]، وذكرتُ أن التكذيب بالآيات والغفلة عنها من محاور سورة الأعراف.

إذًا؛ فالقول الأول في معنى {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...} [الأعراف ١٤٦]: بالرغم من وضوح الآيات وتفصيلها إلا أن كثيرًا من الناس لا يفقهون هذه الآيات ويعرضون عن اتباعها، لماذا؟ لأن الله -عز وجل- صرفهم عنها. ولماذا صرفهم الله -عز وجل- عنها؟ لأنهم كانوا غافلين وأعرضوا عن التدبر فيها {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ}[الصف ٥]، ولما {انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم}[التوبة ١٢٧] ولما كذبوا بالآيات وكانوا عنها غافلين؛ صرف الله ﷻ قلوبهم عن الإيمان.

إذًا؛ هذا أحد العلاقات ما بين {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}[الأعراف ١٤٥] وبعد التفصيل، و{سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ}[الأعراف ١٤٦].

حسنًا، بالنسبة لكلمة "آياتي" في الآية، نحن نحاول -كما قلنا- أن نصل إلى مورد القسمة، أي: ما الذي جعل العلماء يختلفون في تفسير هذه الكلمة. اختلف العلماء في: ما هي هذه الآيات؟ وما معنى الصرف في قوله: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ}[الأعراف ١٤٦]؟

هناك نوعان من الآيات؛

- آيات كونية مثل: خلق السماوات والأرض والشمس والقمر وسنن الله ﷻ المبثوثة في الأرض.
- والآيات الشرعية: التي هي الوحي سواء التوراة أو الإنجيل -قبل التحريف- أو القرآن.

بعض أهل العلم (كالإمام ابن عيينة) اختار أن الآيات هنا الآيات الشرعية. فيكون المعنى: "سأصرف عن فهم آياتي وعن التدبر في الآيات".

وبعضهم قال إن المقصود: الآيات الكونية، مثل: الإمام ابن جريج من السلف.

أما الإمام الطبري اختار -كالعادة- العموم قال: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ}[الأعراف ١٤٦] أي: سأمنع (المتكبر) عن التدبر في الكون وعن التدبر في الآيات الشرعية أي: الوحي"، فالمتكبر لا يفقه الآيات، وسنذكر الداء الذي بداخله ويمنعه من فهم الآيات.

إذًا، {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ}[الأعراف ١٤٦].

- القول الأول: أن (الآيات) هنا هي الآيات الشرعية وأن (الصرف) معناه الصرف عن الفهم.
- والقول الثاني: أن (الآيات) هنا هي الآيات الكونية، وأن (الصرف) أيضًا هو الصرف عن التدبر.

لذلك ابن عيينة يقول في تفسير هذه الآية: "{سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ}[الأعراف ١٤٦] أي: عن فهم القرآن، أي أن الله ﷻ ينزع من المتكبرين فهم القرآن"؛ المتكبر محروم من فهم القرآن.

والذي يرفض الانصياع للشرع ولا يُقبِل على القرآن لأجل التطبيق محروم من بركة القرآن، والذي يُعطى بركة القرآن هو الذي يُقبل عليه متعلمًا متمسكًا بكتاب الله -سبحانه وتعالى-.

بعض العلماء قال: ليس المعنى "سأصرف عن فهم الآيات حتى لو كان المقصد الآيات الشرعية"، بل هناك محذوف قبل كلمة (آياتي)، بعضهم قدَّر أن المحذوف هو كلمة (فهم)، أي: سأصرف عن فهم الآيات. وبعضهم قال: إن المعنى: سأصرفهم عن (إبطال) الآيات، فسورة الأعراف تكررت فيها كلمة (الآيات) كثيرًا، والكفار يحاولون إبطال هذه الآيات؛ كما قتلوا الناقة، وسيحاولون بعد التفصيل الذي حدث في التوراة أن يؤولوا ويلبسوا ويغيروا في الشرع، فالله -عز وجل- سيصرف عنهم إبطال هذه الآيات، ويُبقي الله -عز وجل- الآيات كما حدث في القرآن {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[الحجر ٩] فالقرآن لا يستطيع أحد أن يغير فيه.

فمعنى كلمة {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ}[الأعراف ١٤٦] أي: سأصرفهم عن إبطال الآيات، فإن للكفار مكر وبأس وتخطيط وتدبير لمحاولة إبطال الآيات، ولكن يطمئننا الله -عز وجل- أنه سيصرفهم عن إبطال الآيات.

إذًا؛ فالمعنى:

- إما سأصرف عن (فهم)، أو سأصرف عن (إبطال) الآيات.
- و(الآيات) إما آيات كونية أو آيات شرعية.

وبعض أهل العلم قال: الآيات هنا أحيانًا تأتي بمعنى العقاب (المثُلات)، وكلمة {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ}[الأعراف ١٤٦] أي: لن يستطيعوا مقاومة العقاب، أي: لحظة نزول العذاب لن يستطيعوا أن يقفوا أمامه، فسأصرفهم عن محاولة دفع هذا العقاب.

حسنًا؛ ما علاقة هذا المعنى الأخير بالآية؟ بعضهم قال: إذا اخترنا أن معنى آية {سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}[الأعراف ١٤٦] تعني الوعد بالتمكين، فقد يتعجب الإنسان كيف سيمكننا الله ﷻ من أرض الشام ويسكن فيها العمالقة والجبارون المتكبرون؟! كيف سيمكننا الله ﷻ من الشام؟!

فهنا يطمئننا الله ﷻ أنه قادر على أن يصرف هؤلاء عن طريق أن ينزل عليهم العقاب الذي لا يستطيعون أن يقفوا أمامه أبدًا.

لذلك، فالمفسرون كانوا في قمة الدقة وهم يتعاملون مع هذه الفروقات. فالذين قالوا إن الآيات هنا هي آيات القرآن كابن عيينة قال في تفسيرها: "{سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ}[الأعراف ١٤٦] أي: سأنزع من المتكبرين فهم آيات القرآن."، ولكن لما وصل لابن جرير الطبري هذا الأثر عن ابن عيينة، تعجب وقال: هل كان يقصد بهذا أنه قد حدث التفات في الكلام، أي: أن الله تعالى يخاطب نبيه ويقول له سوف أصرف المتكبرين من قومك (قريش) عن فهم القرآن، وأن القصة هنا حدث فيها نوع من الانقطاع، وأن الله ﷻ يخاطب النبي ﷺ، فيبلغه أنه ﷻ فصَّل في التوراة وفصَّل في القرآن، وكما أن قوم موسى أعرضوا عن التوراة فإن قومه ﷺ سيُعرِضون عن القرآن بسبب كبرهم.

ولكن ابن كثير –وأنا أذكر هذا لأني أريدك أن تطلع على ملمح من دقة تعامل المفسرين– لما قرأ كلام جرير قال: إن ابن عيينة لا يقصد ما فهمه ابن جرير الطبري، فكلام ابن عيينة ليس تفسيرًا بل هو تنزيل على الواقع أو كما نقول بمصطلحاتنا (إسقاط على الواقع)، أي: أن ابن عيينة يقول إن الآية نزلت بالفعل في بني إسرائيل، لكن هذه سنة الله ﷻ في معاملته مع المتكبرين؛ أنه يمنع عنهم فهم الوحي، أيًّا كان هذا الوحي وأيًّا كان هذا المتكبر، فإن كان المتكبر من بني اسرائيل فهو محروم من فهم التوراة، وإن كان المتكبر من أمة محمد –صلى الله عليه وسلم– فهو محروم كذلك من فهم القرآن –والعياذ بالله–.

إذًا؛ فإجمال قول المفسرين في آية: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ}[الأعراف ١٤٦]: فهم، إبطال، معارضة العذاب.

{سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...} [الأعراف ١٤٦]

انظر عندما يعاقب الله ﷻ أحدًا ما ماذا سيكون حاله؟! حينما يعاقب الله ﷻ إنسانًا بالصرف عن الحق، مهما كان الحق واضحًا أمامه؛ لا يتخذه سبيلًا أبدًا!

يقول ربنا سبحانه وتعالى: {وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا}[الأعراف ١٤٦] أيًّا كان ما تريه من آيات! {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا} [الأنعام ١١١]! فإن قام الميتون من مرقدهم وقالوا لهم إن القرآن حق، وإن نزلت الملائكة وقالت لهم أن القران حق، وكذلك كل المخلوقات سواء جمادات أو حيوانات إن انطلقت إليهم قبلًا وتقسم لهم أن القرآن حق؛ ما كانوا ليؤمنوا!

وتجد أن هذه الآية في سورة الأنعام جاءت بعد آية {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الأنعام ١١٠] أي كما أعرضوا عن القرآن أول مرة فلن تؤثر فيهم أي آية أبدًا، فأنت إذا تكلمت بالوحي مع من يُعرِض عن الشرع ونصحته بوجوب الإقبال على الله ؛ لا يقتنع -غالبًا- بأية آية!

لذلك كان بعض المسلمين يتشوَّف لنزول آية حسية تكسر وتلوي أعناق قريش، وكانوا يعتقدون أن هذا هو الحل معهم، لأن قريشًا كانوا يرددون دائمًا أنهم غير مقتنعين بالقرآن فكان بعض المسلمين لطيبتهم يعتقد أن الحل نزول آية حسية، ولو كانت قد نزلت آية حسية لأعرضت قريش وعاجلهم الله بالعذاب، وهذا المعنى مبثوث في القرآن.

فالشاهد: {وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ}[الأعراف ١٤٦] أيًّا كانت هذه الآية، وكما أشرنا إلى ذلك سابقًا عند تفسير آية {وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}[الأعراف ١٣٢] أيًّا كانت هذه الآيات! وقد ذكرنا أن من المحاور الأساسية في سورة الأعراف: تفصيل الآيات ثم الإعراض عنها؛ آيات مفصلات واضحات كما جاء في آيات موسى عليه السلام في هذه السورة، وبالرغم من ذلك يعرضون عنها، {وَإِن يَرَوْا}[الأعراف ١٤٦] فبهذه الآية يثبت الله -سبحانه وتعالى- أنهم يرون الآيات بالفعل؛ فلا عذر لهم.

{وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ}[الأعراف ١٤٦] -يرى الطريق- {لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا}[الأعراف ١٤٦] نجد هنا شيئًا عجيبًا وهو أن الله مع

(الرشد) قدم (الآية) ثم (الرشد)، قال: {وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا} ثم قال: {وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا} فالرشد به (آية وسبيل)، أما طريق الغي ليس عليه آيات، فلم يقل الله تعالى: وإذا رأوا الآيات التي على طريق الغي ثم رأوا سبيل الغي اتخذوه سبيلاً.

ماذا يعني هذا؟ يعني أن طريق الضلال ليس عليه بينة وليس عليه حجة، ومهما حاول المبطل أن يأتي بحجج؛ ترتد عليه مرة أخرى.

ومثل هذا يحدث عندما تتناقش مع ملحد فمهما حاول أن يأتي بأدلة سواء عقلية أو غيرها على صحة مذهبه لا يستطيع أن يأتي بآيات، فحينما تتكلم عن وجود الخالق سبحانه أنت تأتي بملايين الآيات والأدلة، وهو –الملحد– يتكلم عن أشياء لا يأتي عليها بدليل، فيقول لك مثلًا: هنالك احتمالية بوجود كائنات فضائية وأن تكون هي التي خَلقت –مثل ما يقول دوكنز!– وقد يفترض افتراضات أخرى دون أن يأتي بأدلة!

فيقول الله ﷻ إن طريق الحق آية وسبيل، هكذا يتم عرض الدين؛ آية بينة على هذا الدين ثم الطريق، بعض الناس يكتفي بالآية ولا يدل الناس على طريق.

{وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ}[الأعراف ١٤٦] الرشد له سبيل، والسبيل هو الطريق الذي سار عليه الناس، يقال: "الطريق الذي سبلته السابلة" يعني: سارت عليه القافلة وأصبح ممهدًا، فهو السبيل، لذلك لما جاء قاتل المئة وأراد أن يتوب قال: "هل لي من توبة" قال: "نعم، انطلق إلى أرض كذا"، وهذا يعني أنه قال له: نعم لك توبة، ثم دلَّه على طريق التوبة.

فإذًا؛ عرض الدين يكون بآية معجزة وبينات ودلائل على صحة هذا الدين، ثم طريق السير في هذا الدين، أما طريق الغي ليس عليه آيات.

وأيضًا في كلمة {وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ}[الأعراف ١٤٦] دلالة على أنه يعلم أن هذا هو الطريق الصحيح ومع ذلك يرفض! فلماذا يرفض سبيل الرشد بالرغم من أن الله –عز وجل– سماه (الرشد)؛ رشد الصلاح والكمال.

ويختلف معناه على حسب السياق؛ هل الصلاح في الدين أم الصلاح في المال؟ {فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ}[النساء ٦] فالرشد في آية سورة النساء: الرشد في التصرف في المال، وبعض أهل العلم أضاف الإيمان.

الشاهد: هنا الرشد معناه: الإيمان {وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا}[الأعراف ١٤٦] لماذا؟ لأنه يخالف أهواءهم! فهو يعلم أن هذا هو الصواب ولكنه لا يريده، كما ذكرت لكم أن هذا يحدث كثيرًا في النقاشات مع هذا الصنف من الناس؛ فأنت تصمم على أن تقنعه بحرمانية هذا الأمر وهو بالفعل يعلم حرمانيته ويعلم أن من الرشد أن لا يفعل مثل هذا الأمر، لكن هذا النهي يخالف هواه!

{وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ}[الأعراف ١٤٦] أي: أنه لم يسر على هذا الطريق على جهالة منه، والخطاب هنا لبني إسرائيل لأن بني إسرائيل هم اليهود المغضوب عليهم، لماذا؟ لأنهم عرفوا الحق وضلوا عنه عن قصد وعن عمد.

وهذا أحد معاني كلمة {يتخذوه} اتخذ الشيء، ويدل على القصد والتكلف، فكلمة {وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا}[الأعراف ١٤٦] أي: عن عمد وعن قصد، وقال بعض أهل اللغة أي: الملازمة، أي أنه لم يختر فقط سبيل الغي بل نوى الملازمة، أي: أن يلازم هذا الطريق ولن يفارقه!

{وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا}[الأعراف ١٤٦] تقول له: أقبل نفعل كذا وكذا، يقول لك: لا! تنصحه بأن الصواب أن تفعل كذا ويرفض أن يفعله، وعندما يرى طريقًا هو يعلم جيدًا -في داخل نفسه- أنه طريق حرام؛ (الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس)[٣]، فهو يعلم أن هذا الفعل حرام {وإن يروا سبيل الغي} عن قصد وعن عمد يتخذوه سبيلًا، لماذا فعلوا هذا؟ لماذا صرفهم الله -عز وجل- عن الآيات؟ لماذا اختاروا طريق الغي وتركوا طريق الرشد؟!

{ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ} باء السببية، {بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}.

{وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ} فيمكن لإنسان أن ينسى أن هناك شيئًا اسمه (الدين) من كثرة ابتعاده عن الدين، فينسى أن يفكر أن يعود إلى الله، فهو غافل! هناك أحد تفوته الصلاة فيقضيها، وآخر نسي أن هناك

---

[٣] [عن [النواس بن سمعان الأنصاري]:] الإثمُ ما حاك في صدرِك، وكرِهتَ أن يطَّلِعَ عليه الناسُ
الشوكاني (ت ١٢٥٥)، إرشاد الفحول ٢/٢٨٤ • حسن • أخرجه مسلم (٢٥٥٣)

أمر اسمه (الصلاة) فقد ترتبت حياته على عدم وجود مواعيد لها من غفلته، ثم تجده يتعجب قائلًا: "لم أصلي الفجر منذ ثلاث سنوات!" فهو أصبح غافلًا في حياته، لا يفكر، لم يعد يسأل عن كلمة حلال أو حرام، فهنا تسمى غفلة.

وقد يأتي أحدهم فيقول: "قد يكون الغافل معذورًا"، نقول له: "لا"، لأن الغفلة التي بدأت بقصد وانتهت بالترك والإهمال والنسيان يُعاقب عليها الإنسان.

وهناك فرق بينه وبين الذي يَغفُل وينسى شيئًا ثم يتذكره، قال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكرِي}[طه ١٤]، حين يتذكر الإنسان الصلاة يصليها، هذا هو الغافل. لكن المقصود هنا أنه كذب بالآيات فلم يعد يريد أن يسمع شيئًا عن الدين، من الممكن أن يصل إلى مرحلة الذين قال عنهم ربنا: {أَلهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرتُمُ المَقَابِرَ}[التكاثر ١-٢]، فهذا غافل عن أن يلجأ إلى الله، وأن يسأل عن مراد الله ﷻ.

ثم تكرر الختام الذي جاء من قبل مع قوم فرعون: {ذَٰلِكَ بِأَنَّهُم كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنهَا غَٰفِلِينَ}[الأعراف ١٤٦].

{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ الآخِرَةِ حَبِطَت أَعمَٰلُهُم}[الأعراف ١٤٧].

ما الذي أفادته الجملة هنا؟ أن الذي يُعرِض عن الآيات لديه شيء أساسي دفعه للإعراض عن الآيات.

حسنًا، ما المانع الذي جعله يرفض الآيات؟ هل لقبحها؟ هل لعدم اقتناعه؟ لا شيء من ذلك أبدًا، لأنه يرفض أن يُحاسب، يرفض أن يعيش عبدًا لله ﷻ، فهو يرفض ذلك.

لذلك غالب المشكلة الأساسية لكثير من المعرضين هي: قضية الدار الآخرة، فكثير من الناس وهو يُناقِش يريد أن يهرب من الآخرة، قال تعالى: {بَل يُرِيدُ الإِنسَٰنُ لِيَفجُرَ أَمَامَهُۥ}[القيامة ٥] فهو لا يريد أن يُحاسَب، لا يريد أن يُكلَّف، وهذا أصل من أصول الضلال؛ ألا وهو الهروب من التكليف، لذلك قال ربنا -سبحانه وتعالى-: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ الآخِرَةِ}[الأعراف ١٤٧]، لا يريدك أن تخبره أنه سيحاسَب، لا يريد أن يسمع هذه الكلمة، يريد أن يفعل ما يشاء بدون أي حساب.

لذلك جملة { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ } جاءت في القرآن ثلاث مرات:

١. مع الوحي: {قَالُوا مَآ أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَر مِّن شَىءٍ}[الأنعام ٩١].
٢. مع قدرة الخالق ﷻ في خلقه وقدرته، وعلى وجوده ﷻ، في سورة الحج.
٣. مع اليوم الآخر، في سورة الزمر: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدرِهِۦ وَالأَرضُ جَمِيعا قَبضَتُهُ يَومَ القِيَٰمَةِ}[الزمر ٦٧].

هذه المحاور الثلاثة تفيد أن الله ﷻ أنزل وحيًا إلى الناس ليعاقبهم ويحاسبهم ويجزيهم على هذا الوحي يوم القيامة، فمن يريد الهروب من التكليف إما أن يُنكِر الدار الآخرة، وإما أن يُنكِر الوحي، أو يُنكِر وجود الله ﷻ، وهناك من يُنكر مجموع هذه الأمور، لكن في النهاية من يريد أن يهرب من التكليف ويكسر دائرة التكليف إما أنه ينكر وجود الله، أو ينكر الوحي، أو ينكر الدار الآخرة.

فمنهم من يُثبِت وجود الله لكنه ينفي وجود الآخرة، مثل مشركي قريش، وبما أنه ليست هناك آخرة، فيقولون: "نفعل ما بدا لنا"! تسأله: أهناك إله؟ يقول: نعم، هناك إله لكن ليس هناك يوم آخر!

وآخر تسأله: أهناك إله؟ يقول: نعم، هناك إله، وتسأله: أهناك آخرة؟ يقول: نعم، هناك يوم آخر، وتسأله: على ماذا سيحاسبنا الله؟ يقول لك: نحن نفعل في حياتنا ما نراه صحيحًا، وكل منا سيحاسبه الله على نيته وقلبه، طالما أنه كان يريد أن يفعل الخير!!

إذًا؛ فهؤلاء ليس لهم منهج ثابت لأنهم أنكروا الوحي من الأساس، فكل من يريد أن يخرج من دائرة التكليف ينكر واحدًا من الثلاثة السابق ذكرهم.

لذلك قال الله ﷻ عنهم: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ الـَٔاخِرَةِ حَبِطَت أَعمَٰلُهُم}[الأعراف ١٤٧] ما معنى {حَبِطَت أَعمَٰلُهُم}؟ أليسوا كفارًا؟ ألم يعرضوا عن الآيات؟ هل لهم أعمال صالحة؟ ماذا تعني {حَبِطَت أَعمَٰلُهُم}؟

هنا انقسم المفسرون: جماهير المفسرين: قالوا: {حَبِطَت أَعمَٰلُهُم} بأن كانت لهم أعمال يظنون أنها صالحة، فكل أعمالهم لم تكن قتلًا وتشريدًا وتعذيبًا، بالتأكيد كانوا يفعلون بعض الخير كإطعام الطعام، فمثل هذه الأعمال يظن صاحبها أنها صالحة.

وبعضهم قال: {حَبِطَت أَعمَٰلُهُم} أي: الأعمال التي حاولوا بها إبطال الدين، فمثل هذه الأعمال لا تؤثر شيئًا، وأن هؤلاء مهما حاولوا إطفاء نور الله ﷻ {وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [الصف ٨].

لكن الغالب هو الرأي الأول، لأن الحبوط يأتي مع العمل الصالح، أو الذي يظن صاحبه أنه صالح، ولكن لماذا يُحبَط هذا العمل؟

مثلًا: إذا كان الإنسان كافرًا وعمل أعمالًا صالحة في دنياه، لماذا يحبط الله هذه الأعمال؟ يقول الله في ختام الآية: {هَل يُجزَونَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعمَلُونَ} [الأعراف ١٤٧]، فهل عمِل هذا الكافر عمله الصالح ابتغاء مرضات الله ﷻ؟ هل عمِله وهو يدعو ربه أن يغفر له بهذا العمل ذنوبه يوم القيامة؟

بالطبع لا؛ لأن الله ﷻ قال في الآية أن هذا الإنسان يكذّب بيوم القيامة ولقاء الآخرة، فهو قد عمل هذا العمل ولا يريد من الله أجرًا على ذلك لأنه ينكر وجود الله وينكر الدار الآخرة وينكر الوحي، فكيف سيعطيه الله ثوابًا على شيء لم يكن يرجوه؟!

لكنه حينما يأتي يوم القيامة يتمنى لو أنه فعل ذلك.

لذلك سألت أمنا عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ عن بن جدعان الذي كان يطعم الفقراء في الجاهلية قالت: يا رسول الله هل ينفعه ذلك شيئا؟ قال: (يا عائشة إنه لم يقل يومًا رب اغفر لي يوم الدين)[٤]. الحديث في صحيح مسلم.

هو لم يكن يعمل مثل هذه الأعمال لأجل الآخرة؛ لأنه قد كذب بلقاء الآخرة، فكيف ستنفعه أعماله؟! لن ينفعه شيئًا.

تجد بعض الناس أحيانًا يتعجبون من الذين يقولون على أحد الملحدين أنه سيدخل النار! يقولون "كيف تقولون ذلك؟ اتقوا الله!" أقول لهم: من الذي يتقي الله؟ أنا أم أنت؟! فلان هذا ملحد بوجود الله، ماذا ينتظر من الله إذا كان ينكر وجوده؟ هل من المفترض أن يدخله الله الجنة الذي ينكر وجودها أيضًا ويبعده عن النار التي لم يكن يفر منها!

---

[٤] [عن عائشة أم المؤمنين:] أنَّها سألَته عن قولِه: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ والسَّمَواتُ} [إبراهيم: ٤٨] {وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ} [إبراهيم: ٤٨] فأينَ يكونُ النّاسُ يومَئذٍ؟ فقال: (على الصِّراطِ) قالت: قُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، ابنُ جُدْعانَ كان في الجاهليَّةِ يصِلُ الرَّحِمَ ويُطعِمُ المسكينَ فهل ذاك نافِعُه؟ قال: (لا ينفَعُه لم يقُلْ يومًا: ربِّ اغفِرْ لي خطيئتي يومَ الدِّينَ)
ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٣٣١ • أخرجه في صحيحه

كيف يريد النجاح من لم يُجِب على الاختبار أو كانت كل إجاباته خاطئة! كيف ذلك؟! قد يحدث هذا في الدنيا ولكنه لن يحدث في الآخرة! هل يمكنك أن تدخل اختبار رياضيات أو بيولوجي وترسم في ورقة الإجابة رسمة رائعة، ماذا سيفعل المصحح حينها؟ بالطبع سترسب! لأن هذا ليس اختبار رسم!

فالله ﷻ خلقنا لطاعته وجاء إنسان وأجاب إجابة جميلة جدًا لبعض الناس، لكن هذا ليس مراد الله منك، هذا ليس ما أراده الله منك لتدخل الجنة أو ليُدخِلك الله ﷻ الجنة.

فهذا شيء عجيب! يقولون: "حرام عليكم، لماذا تقولون عن فلان الملحد أنه سيدخل النار؟" هو يُنكر وجود الله، فلماذا تغضب أنت عندما يقابل هذا الإله الذي أنكر وجوده ويعاقبه، قل لي لماذا تغضب؟

هذا إن دل فإنما يدل على أن هناك من يريد أن يسيِّر الحياة هكذا ويقول: أن كل الناس على صواب وأن كل الإجابات صحيحة، النصراني على حق، واليهودي على حق، والملحد على حق، والبوذي على حق، والهندوسي على حق... وهذا نوع من العبث!

أنا لا أريد أن أخرج عن موضوعنا الأساسي وهو سورة الأعراف عسى الله أن يقدر لنا لقاءً آخر نتكلم فيه عن هذا الأمر تفصيلًا، لكن هذه كانت إشارة سريعة وهي أن هذا التفكير يؤدي لنوع من العبث.

عندما تريد أن تبطل هذا المنهج سِر معه إلى آخر الطريق، فمثلاً وأنت تحاور صاحب هذا المنهج قل له: دعنا نرى لوازم وتبعات هذا القول، أنت تقول أن كل البشر على صواب! لكن هذا يعني أنه لا داعي لنشر دين الإسلام! فلماذا نجتهد ونتعب وندعو إلى الله؟ ألن ندخل جميعًا الجنة على حسب قولك هذا؟ لماذا ندعو إلى الله إذًا؟! لماذا نسعى لتطبيق: {ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ}[النحل ١٢٥]؟! لماذا أدعو إلى سبيل ربي إذا كان الناس جميعًا سيدخلون الجنة؟!

تبعات هذا المنهج: أن الإسلام ليس دينًا عالميًا، وأنه ليس مهيمنًا، وأننا لسنا مطالبين بنشر الدين! وأن كل الاعتقادات صحيحة، وليس هناك حق مطلق، وأن البشر إذا أرادوا أن يأتوا بمنظومة قيمية عُليا يسلموا لها كل أمورهم لن يستطيعوا؛ لأن الكل سيرى نفسه على صواب!

الإسلام يقول: **إن القرآن هو الحق المطلق الثابت**، وهذا الأمر لا يمكن لأحد أن يتجاوزه وإذا تجاوزه أحد فسيختلف كثيرًا مع غيره في النقاشات، لذلك الأفضل قبل أي نقاش أن نُقِرُ بأن الإسلام دين حق

ثم نقر بأن الإسلام هو الدين الحق ثم نقر بأن الإسلام هو الرسالة العالمية، هذه المقدمات تريحك في كثير من النقاشات، وإن لم تضع هذه المقدمات لا تكمل النقاش.

تقول له مثلًا: الإسلام دين حق أم دين باطل؟ إذا أقرَّ أنه دين حق، حينها تكمل النقاش، وإذا لم يقر بذلك تقف لتثبت له أن الإسلام دين حق، وإذا كان يرفض أن هناك دين من الأساس؛ تقف لتثبت له وجود الدين، وهذا الأمر ليس صعبًا أبدًا! فقط نسأله من أين يريد أن يبدأ ونحن معه، إذا كان يرفض أن لهذا الكون إله، فلا مشكلة وابدأ في إثبات ذلك له!

لكن ليس منطقيًا أبدًا أن تثبت له أن لهذا الكون إله، وأن هذا الإله أنزل منهجًا للبشر لكي لا يعيشوا في نوع من أنواع العبث، وأن لهذا المنهج الكثير من الدلائل على صحته وأحقيته، ثم بعد أن تصل إلى أن الإسلام حق وتنطلق حينها من القرآن تجد في القرآن قول الله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرقَانَ عَلَىٰ عبده لِيَكُونَ لِلعَٰلَمِينَ نَذِيرًا}[الفرقان ١]، وقوله تعالى: {يَٰأَهلَ الكِتَٰبِ قَد جَآءَكُم رَسُولُنَا}[المائدة ١٩]، لكن لماذا سيدعو رسول الله أهل الكتاب إذا كانوا جميعًا سيدخلون الجنة؟! الرسول ﷺ سيكلمهم لأي سبب؟!

لذلك قبل الاستدلال بآية: {لَّقَد كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓاْ}[٥] هناك استنتاجات مقدمات تصل بك إلى هذه النتيجة، وتجعل الذي أمامك ينطق بهذه النتيجة دون أن تتكلم بها أنت، هذا إن اتفق معك على المقدمات التي سبق ذكرها!

إذًا؛ الشاهد هنا مسألة: {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ الَّاخِرَةِ}[الأعراف ١٤٧] فهم كذبوا بالله ﷻ والآيات والدار الآخرة!

ما الذي سيحاسبنا الله عليه في الدار الآخرة؟ على ماذا سنحاسب في الدار الآخرة؟

---

[٥] ١. لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿المائدة: ١٧﴾
٢. لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿المائدة: ٧٢﴾
٣. لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿المائدة: ٧٣﴾

سنحاسب على ما أنزله الله ﷻ من وحي وكتاب، الإسلام دين حق، وبما أنه كذلك فالله ﷻ أمرنا في القرآن أن ننشر هذا الدين، **إذًا فالإسلام هو الدين الحق**، والإسلام رسالة عالمية، اتفقنا؟!

هذه مقدمات مهمة لا بد أن توجد في كثير من النقاشات.

دعونا نستأنف كلامنا، لعل الله كما قلت أن ييسر لنا محاضرة نشرح فيها التصور الكلي لقضية الإسلام بداية من مسألة وجود الله ﷻ حتى أهمية السُنة، وليس فقط القرآن ولكن أهمية السنن كذلك، وأن غياب خطوة من هذه الخطوات يدل على شيء من العبث في الأرض.

ثم حدثنا الله ﷻ عن نموذج لمن اتخذوا سبيل الغي، قال الله ﷻ: {وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا }[الأعراف ١٤٧].

فهنا نموذج لمن رأوا كل آية، رأوا شق البحر لهم، ونموذج لمن رأوا سبيل الرشد، فقد ذهب موسى عليه السلام ليأتيهم بالتوراة، ونموذج لمن رأوا سبيل الغي، وهو العجل فاتخذوه سبيلًا.

فقال ربنا ﷻ: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ }[الأعراف ١٤٨]

- {وَاتَّخَذَ} تكلفوا عن عمد وعن قصد، لأنهم هم من صنعوا الآلهة بأنفسهم.

وهنا نجد الإشارة ذاتها التي ذكرناها في قول الله ﷻ: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ}[الأعراف ١٣٨].

- وذكرنا أن ابن عرفة قال: إن معنى كلمة {لهم} تفيد أنهم هم الذين صنعوها بأيديهم.

فهنا {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ}[الأعراف ١٤٨] فهم الذين صنعوا الآلهة ثم عبدوها، فيضعون المناهج الأرضية ثم يخضعون إليها ويُلزمون بقية البشر بالخضوع إليها بالسيف! وهذا أمر عجيب! كيف تضع أنت منهجًا أرضيًا ثم تُلزمني به!

{وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ}[الأعراف ١٤٨] وهنا الحديث عن **مسألة: غياب القيادة**، فالقوم الذين يعتمدون اعتمادًا مطلقًا على وجود القائد وبمجرد غياب القائد ينتكسون، هؤلاء حالهم غالبًا يكون الانتكاس، لأنهم يريدونك أمامهم لكي يستمرون.

- وكلمة {مِن بَعدِهِ}[الأعراف ١٤٨] أي: بمجرد أن غاب عنهم موسى عليه السلام.

{مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ}[الأعراف ١٤٨].

دعوني أخبركم سريعًا؛ إن القرآن أجمل في هذه الآية وآيات سورة طه حين تحدث عن قصة العجل الذي صنعه السامري، وبالعودة إلى الإسرائيليات؛

❖ وللتذكير: ليس كل ما في الإسرائيليات يُنكَر، لأن بعض الناس ولاسيما المعاصرين يعتبر أن أي إسرائيلية لا بد أن تُنسف، ولكن هذا ليس صحيحًا، لأن هذه الإسرائيليات قد رواها بعض السلف، فإذا ثبتت هذه الرواية عن بعض السلف ولم تُعارِض أصل من أصول الدين؛ لا مانع من الاستئناس بها في فهم القرآن.

والدكتور مساعد طيار وهو دكتور تخصص في مسألة أصول التفسير؛ وضع في كتابه (التحرير في أصول التفسير) أن الإسرائيليات ركن مهم كما أن اللغة ركن مهم، فهي ركن مهم لفهم النص لكن ليست ركنًا مستقلًا، فهي يُستأنس بها في فهم النص.

نجد روايات كثيرة الحاصل منها أن بني إسرائيل استعاروا من القبط من قوم فرعون الحُلي، فأهلك الله ﷻ القبط قبل أن يعيد بنو إسرائيل الحُلي لهم، فتحرَّج بعض بني إسرائيل من وجود الحلي وقالوا: هذا ليس ملكًا لنا نريد أن نتخلص منه.

وكما تلاحظ أن البداية فيها نوع من الأمانة، انتهز السامري هذه الفرصة، ودائمًا عند غياب القيادة تظهر الشخصية التي تَجني ثمار الكفاح وهي لم تفعل شيئًا! فطوال قصة الكفاح ضد فرعون لم نسمع شيئًا عن هذا السامري! فأين السامري في كل الآيات السابقة؟ لم يظهر أبدًا! لم يظهر إلا في اللحظة التي غاب فيها القائد، وقال لهم: اجمعوا الحلي، وأخذها منهم وصنع بها عجلًا جسدًا!

في سورة طه قال ربنا ﷻ: إن السامري يقول: {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي}[طه ٩٦]، قال جمهور المفسرين في معنى {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ}[طه ٩٦]: إن الرسول هنا هو جبريل عليه السلام، وإن السامري رأى جبريل وقد جاء إلى موسى عليه السلام وهو

على فرس، فأخذ السامري قبضة من تحت حافر فرس جبريل، وألقي في روع السامري –أو في نفسه– أن هذه القبضة إذا ألقاها على شيء ميت أصبح حيًا! فاحتفظ السامري بهذه القبضة حتى جاء الوقت المناسب، وانتهز اللحظة المناسبة بعد غياب موسى وقام بتجميع الحلى –حيث إن هذه الحلي تدل على طهارتهم من الذنوب–، وصنع منها هيئة عجل وألقى عليه هذه القبضة، فأصبح هذا العجل –الذي صنع من ذهب– حيًّا وخار وأخرج صوتًا له خوار، وفي هذه اللحظة فُتن بنو إسرائيل.

وهذا قول مُعتبَر وذكره كثير من المفسرين وأهل العلم، ولكن ما هي الإشكاليات التي وردت عليه وكيف رد عليها هؤلاء؟

- اختلف المفسرون هل العجل كان عجلًا حقيقيًا؟
- من اختار أنه عجل حقيقي هم من ذكروا هذه القصة التي سردتها، وقالوا إنه كان عجلًا حقيقيًا من لحم ومن دم، ولكن ما دليلهم على ذلك؟ الدليل: جملة {من أثر الرسول}[طه ٩٦] وكلمة {خوار}[طه ٨٨].
- ومن اختاروا أنه ليس عجلًا حقيقيًا دليلهم على ذلك كلمة {جَسَدًا}، لأن كلمة (الجسد) تأتي في اللغة وفي استعمال القرآن لما لا روح فيه. {وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ}[الأنبياء ٨]، وكذلك من اختار أن الجسد في قصة سليمان في سورة ص كان نصف إنسان وألقيَ على كرسيّه ومات {وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ}[ص ٣٤].

فقالوا بأن استعمال اللغة يساعد على أن هذا الجسد لا روح فيه، ولكن ماذا كان ردهم على كلمة {له خوار}[طه ٨٨]؟ ومن أين أتت؟ قالوا: إن هذه صنعة صنعها السامري بطريقة معينة بحيث أن الهواء يمر فيُحدِث هذا الصوت.

ولكن الفريق الأول رد عليهم وقال: ما الشيء المبهر في هذا ويجعل بني إسرائيل يعبدونه؟!

بالمناسبة: بعض المفسرين توقف مثل ابن كثير وقال: "واختلفوا هل كان العجل حقيقيًا أم جسدًا بدون روح"، وتوقف ولم يذكر شيئًا لأنه رأى أن هذا لا ينبني عليه شيء، ولكن المهم أن بنو إسرائيل قد عبدوه!

ولا تتعجب من فعل بني إسرائيل لأنه ليس من المهم لديهم أن يكون حي، فهذا ليس بمشكلة، وذلك بسبب تأثرهم بالمادية وأنه من ذهب فأعجبهم! وهذا كان الرد على من سأل عن الشيء المبهر، فهم سيعبدونه دون أن يكون حيًا، وبني إسرائيل لا يحتاجون لمثل هذا، لأنهم سابقًا قد مَرُّوا على أناس يعكُفُون على أصنام وقالوا: نريد مثل هذا! وبالتالي لم يكن لديهم مشكلة في أن يعكفوا على أية صنم من ذهب!

والفريق الذي رفض أن يكون العجل جسدًا حقيقيًّا من لحم ودم؛ كيف رد على سؤال: كيف يُمكِّن الله -سبحانه وتعالى- للسامري ذلك؟ كيف يُعلِّمَه ذلك العلم -أنه يأخذ القبضة-؟ وكيف يُعطيه هذه القدرة؟

وهنا نقطة مهمة؛ بعيدًا عن الترجيح، أريدك أن تفهم الشريعة، وتفهم سنن الله ﷻ في معاملة الناس.

قالوا: هذا أمر تكرر كثيرًا في الشريعة، أنه قد يُمكِّن الله -عز وجل- لأهل الباطل شيئًا يكون فتنة لهم، فهذا التمكين ليس لكرامتهم بل هو فتنة! وأشهر مثال على ذلك وهو مثال واضح جليًا: الدجال، مَن الذي سيُمكِّن للدجال أن يَضرب ويقول للسماء: "أمطري"، ويقول للأرض: "أخرجي"، ويقتل الرجل ويُعيدَه حيًّا؟! مَن الذي يعطي هذه القوة للدجال؟ هل مِن عند نفسه؟! الله -عز وجل- الذي أعطى هذه القدرة للدجال، لماذا؟ فتنة للناس.

وكذلك؛ حديث يأجوج ومأجوج في آخر الزمان وهي رواية طويلة قد تكون في صحيح مسلم (أنهم لما مَروا على مكان وقتلوا أهل الأرض فيقولوا: قتلنا أهل الأرض فالآن نعلوا أهل السماء! ثم يُمسكون بسهامهم ويلقونها في السماء، فيعتقدون أنهم سيطروا على السماء فيضربون السهام في السماء! فيقول النبي ﷺ: (فتنزل سهامهم إلى الأرض مخضبة بالدماء) أي عليها دم، فيقولون: علونا أهل السماء! يقول النبي ﷺ: (فتنزل سهامهم إلى الأرض مخضبة بالدماء فتنة لهم)[٦].

[٦] [عن أبي هريرة:] عن النبيِّ ﷺ في السَّدِّ قال يَحْفِرُونَهُ كلَّ يومٍ حتى إذا كادُوا يَخْرِقُونَهُ قال الذي عليهم ارْجِعُوا فسَتَخْرِقُونَه غدًا: قال فيُعِيدُهُ اللهُ كأَمْثَلِ ما كان حتى إذا بَلَغَ مُدَّتَهُم وأراد اللهُ أن يَبْعَثَهُم على النَّاسِ قال الذي عليهم ارْجِعُوا فسَتَخْرِقُونَه غدًا إن شاء اللهُ واسْتَثْنى قال فيَرْجِعُونَ فيَجِدُونَه كهَيْئَتِهِ حين تَرَكُوهُ فيَخْرِقُونَه ويَخْرُجُونَ على الناسِ فيَسْتَقُونَ المِياهَ ويَفِرُّ الناسُ منهم فيَرْمُونَ بسِهامِهِمْ إلى السماءِ فتَرْجِعُ مُخَضَّبَةً بالدماءِ فيقولون قَهَرْنا مَن في الأرضِ وعَلَوْنا مَن في السماءِ قَسْوَةً وعُلُوًّا فيَبْعَثُ اللهُ عليهم نَغَفًا في أَقْفائِهِم فيَهْلِكُونَ: قال فوالذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ إنَّ دَوابَّ الأرضِ تَسْمَنُ وتَبْطَرُ وتَشْكُرُ شُكْرًا من لحومِهِم
الترمذي (ت ٢٧٩)، سنن الترمذي ٣١٥٣ • حسن غريب

أنا أتعمد ذِكر هذه الأقوال؛ لأن الأصل أن يجمع المجلس بين العلم والتربية، وحتى لا تحدث لك صدمة عندما تسمع هذه الأقوال.

كذلك؛ ما ورد في قوله ﷻ: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ }[الحج ٥٢]، القصة المشهورة هنا هي قصة الغرانيق وقول: "وتلك الغرانيق العلى"[٧]؛ أن حينما سكت النبي ﷺ أثناء القراءة في سورة النجم، فقلَّد الشيطان صوت النبي ﷺ في هذه اللحظات ومدح الغرانيق التي هي الأصنام، لكن المسلمين علموا أن هذا من الشيطان.

لكن كيف عرفوا ذلك؟! -وقد قال الله ﷻ بأن الذين أوتوا العلم سيعرفون أن هذا من الشيطان- عرفوا ذلك من خلال أمرين:

١- الآيات كانت في ذم الأصنام، فكيف تأتي وتمدحهم!

٢- ردوا هذه الآيات إلى المحكَم، والقرآن كله ضد الأصنام!

فهذا مثل الذي يتمسك بشبهة ويقول: "الله ﷻ قال أخبرنا بأن النصارى جيدين"! فهو يترك القرآن المحكَم ويمسك في المتشابه منه!

ولهذا فأهل العلم من المسلمين أيقنوا أنها من الشيطان وليست من النبي ﷺ.

ولكن هذا أحد الأقوال في هذه الآية، لأن هناك من قال أن هذه الأمنية ليست كلامًا، مثل الشيخ الألباني، وقد ألَّف حولها كتاب: (نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق)، وإن كانت هذه القصة وردت عن كثير من التابعين عن سعيد بن جبير بأسانيد صحيحة، ومنهم القاضي عياض وغيره، الذي يُرجِّح المعنى الذي ذكرته لكم.

حدث هذا أو لم يحدث؛ فالشاهد في كل الذي ذكرته من قصة السامري أو قصة يأجوج ومأجوج أو قصة الدجال، الشاهد: أن الله ﷻ قد يُمكِّن لأهل الباطل فتنةً للناس، لا لكرامتهم.

---

[٧] ١- [عن سعيد بن جبير:] قرأ رسولُ اللهِ ﷺ بمكَّةَ النَّجمَ فلمّا بلغَ هذا الموضِعَ أفَرَأيْتُمُ اللّاتَ والْعُزّى ومَناةَ الثّالِثَةَ الْأُخرى ألقى الشَّيطانُ على لسانِهِ تلكَ الغَرانيقُ العُلى وإنَّ شفاعتَهُنَّ لتُرتَجى قالوا ما ذكَرَ آلهتَنا بخيرٍ قبلَ اليومِ فسجدَ وسجدوا ثُمَّ جاءهُ جبريلُ بعدَ ذلكَ قال اعرِضْ عليَّ ما جئتُكَ به فلمّا بلغَ تلكَ الغَرانيقُ العُلى وإنَّ شفاعتَهُنَّ لتُرتَجى قال له جبريلُ لم آتِكَ بهذا هذا من الشَّيطانِ فأنزل اللَّهُ وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ
السيوطي (ت ٩١١)، الدر المنثور ٥١٠/١٠ • إسناده صحيح

لكن هذا التمكين لهم لا بد أن يكون مصاحبًا له علامة بأنه باطل! الله ﷻ كما أنه يَفعل هذه الأشياء ابتلاءً للناس؛ فهو سبحانه يَضع علامات تُوضح أن هذا من الباطل، فالدجال سيأتي مكتوبًا بين عينيه "كافر"، (يقرأه كل مؤمن كاتب وغير كاتب)[٨]، فقراءة الفتنة تحتاج إلى إيمان! فالقضية ليست في الذي يحسن القراءة أو في الذي لا يحسن القراءة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده؛ محمد ﷺ.

سألني الإخوة متعجبين من الكلام الذي ذكرته، وقالوا: كيف أن الله يقول {لَنَنسِفَنَّهُ}[طه ٩٧] وأن النسف يأتي على جسد ليس من لحم ودم وليس فيه روح!

بالفعل؛ هذا كان رد على من أخذ بهذا القول –ممن اختاروا أن العجل كان جسد لا روح فيه–، وقالوا: كما استدليتم بالإسرائيليات، فهناك أيضًا إسرائيليات تنفي ما تقولون، وأن العجل كان من ذهب، وأن موسى –عليه السلام– قام بنسفه بالمبارد، وهذا لا يكون إلا فتنةً للناس.

ولكن رد عليهم الفريق الآخر وقالوا: هناك روايات تقول بأنه خارَ مرة واحدة فقط ثم عاد ذهبًا جمادًا، وأنه حينما دبت فيه الروح مرة واحدة مع هذه القبضة، وأصدر هذا الصوت مرة واحدة؛ كانت هذه الفتنة.

الشاهد: أن كل هذه الأحداث تكون فتنةً للناس، ولكن لا تنشغل بتسفيه قول ما، أنت من حقك تمامًا ترجيح قول ما وترد به على القول الآخر. وكل ما ذكرته لكم هي أقوال معتبرة لأهل العلم، فمن اختار القول الأول هو قول معتبر، ومن اختار القول الثاني فهو أيضًا قول مُعتبر، وترجيح قول على قول ليس به أي إشكالية أبدًا.

لكن الإشكالية في أنه قد يحدث للإنسان صدمة معرفية حينما يسمع القول الآخر! مثل من يسألني: كيف هناك مَن يقول إن إبليس كان من الملائكة! وقلت: نحن ذكرنا هذا القول في المجلس، قال: أنا لم

[٨] [عن حذيفة بن أسيد الغفاري:] لأنا أعْلَمُ بما مع الدَّجّالِ منه، معهُ نَهْرانِ يَجْرِيانِ، أحَدُهُما رَأْيَ العَيْنِ، ماءٌ أبْيَضُ، والآخَرُ رَأْيَ العَيْنِ، نارٌ تَأَجَّجُ، فإمّا أدْرَكَنَّ أحَدٌ، فَلْيَأْتِ النَّهْرَ الذي يَراهُ نارًا ولْيُغَمِّضْ، ثُمَّ لِيُطَأْطِئْ رَأْسَهُ فَيَشْرَبَ منه، فإنَّه ماءٌ بارِدٌ، وإنَّ الدَّجّالَ مَمْسُوحُ العَيْنِ، عليها ظَفَرَةٌ غَلِيظَةٌ، مَكْتُوبٌ بيْنَ عَيْنَيْهِ كافِرٌ، يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، كاتِبٍ وغَيْرِ كاتِبٍ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٩٣٤ • [صحيح]

أسمع مثل هذا القول، وكيف ينسبون هذا القول للطبري! قلت: نعم، كل الأدلة التي لديك وتعتقد جهل الطبري بها؛ هو يعلمها وقام بالرد عليها. ومن حقك تخالفه فيها وتُقلِّد العلماء الذين خالفوه فيها، فلا مشكلة في هذا!

لكن لماذا كل هذا الفزع من معرفة قول آخر؟! هل سيبطل الدين مثلًا؟! هل حدث بسببه إشكالية في الدين؟! هل حدثت صدمة في أصول الدين؟! لا أبدًا؛ لا مشكلة! وإن كنت تعتقد أن الرأي الذي تعارضه يؤدي إلى مصادمة أصل من أصول الدين؛ فهو لن يؤدي إلى شيء!

فهذا وهم في عقلك أنت! بدليل أن أهل العلم الأثبات حينما اختاروا قولًا ما؛ قاموا بالرد على كل شيء قد يكون طَعن في أصل من أصول الدين لما اختاروا هذا القول، لذلك أنا قد تعمدت أن أذكر هذا الخلاف والنقاش الذي دار بينهم على مر التفاسير والعصور حتى تعلم أن هذا وذاك أقوال معتبرة! ومنهم من رَجَّح هذا، ومنهم مَن رَجَّح ذلك.

ومنهم مَن توقف ورأى أن هذا الأمر لن يُفيد! وأن ما حدث فقط هو أن بني إسرائيل عبدوا عجلًا جسدًا وله صوت، وهذا ما نَصَّ عليه الله ﷻ في القرآن.

كلمة: {لَّهُ خُوَارٌ} [الأعراف ١٤٨] ومسألة الانبهار بالصوت!

{لَّهُ خُوَارٌ} [الأعراف ١٤٨] العقائد الباطلة لا بد أن تُزيَّن بشيء خارج عن العقيدة.

مثل من يقول: نحن نرى السيدة مريم تتجسد في الهواء في يوم محدد! هو هنا يبني هذا على أشياء من الخرافات، هذا هو {لَّهُ خُوَارٌ} [الأعراف ١٤٨]! وأحد الإخوة أسماها بـ: "نظرية البخور"! مثل شخص يصنع بخورًا للشيء حتى تنبهر الناس! لكن العقائد التي تنبني على هذه المشاعر تسقط بكل سهولة.

وهذا من خطورة أنك تبني يقينك في الإسلام على مجرد مشاعر وليس على علم! مثلما حدثني أحد الناس وقال: يوجد أحد الأشخاص لديه إشكالية في شبهات الإلحاد ويريدك أن تتكلم معه، فقلت له: ما هي الإشكالية؟

قال: الذي كان يثبت هذا الشخص على الإسلام أمران: بعض آيات الإعجاز العلمي، وابتسامة المسلم بعد الموت! ولكنه قابل شخصًا ملحدًا وأخبره بأن هذه الآيات لا تدل على إعجاز علمي، لأن الخطأ

لم يكن في الآية، ولكنه كان في الشخص الذي تعسف وقال بوجود الإعجاز، -وكنا تكلمنا في مسألة الإعجاز العلمي وتسميته-، وأيضًا أحضر له صورًا لأشخاص كفار ابتسموا بعد الموت! فتعجب هذا الشخص وظن أن الإسلام به خطأ!

العجيب أنه يبني الإسلام على بعض الآيات التي قيل تدليسًا بأنها إعجاز! هل هذا هو يقينك في الإسلام!

ولهذا تجد أن كثيرًا من الأديان الباطلة لا بد أن تعتمد على قدر من المشاعر. وهذا مثل: لطميات الشيعة، وزخرفة الكنائس... لا بد أن يغطي نقص هذه العقائد بنوع من المشاعر، أو بنوع من الزخرفة، وهو (الخوار)! هكذا هي العقائد الباطلة!

لذلك سألهم الله ﷻ سؤالاً؛ دعكم من هذا الخوار، ما الذي استفدتم منه؟ {أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا}[الأعراف ١٤٨] هل هذا العجل يتكلم ويهديكم الطريق؟! الإله لا بد أن يتكلم، لا بد أن لا يترك الناس عبثًا، يهديهم الطريق، الإله لا يترك الناس عبثًا في الحياة بدون وحي، لا بد أن يرشدهم إلى الخير، يدلهم.

وهذه مسألة ذكرناها منذ قليل: "**عبثية الحياة بدون وحي**"، ماذا أفادكم هذا العجل حتى تعبدوه؟ هل يكلمكم؟ هل يُبين لكم الأمور؟ وكأن هناك إشارة: أن موسى -عليه السلام- ذهب ليكلم ربه وليأتي إليكم بالسبيل (بالتوراة)، ألم يروا أنهم لا يكلمهم كما كلم الله موسى، ولا يهديهم سبيلًا كما أعطاه التوراة! أنتم مع عجل لا يكلمكم ولا يعطيكم شيئًا، والله -عز وجل- قد كلم موسى وأعطاه التوراة، فأي وجه للمقارنة!

لذلك قال الله ﷻ: {اتَّخَذُوهُ} -واو الحال- {وَكَانُوا ظَالِمِينَ}[الأعراف ١٤٨] أي ظلم هذا! لماذا تعبدونه؟! ما الذي أعطاكم إياه هذا العجل؟! فقط مجرد الانبهار بالزخرفة والذهب والخوار واللحظة التي ألقيت فيها هذه القبضة -إن صحت هذه الرواية-، هذا الانبهار جعلهم يعبدون هذا العجل! هذه المادية الطافحة التي عند بني إسرائيل، ويستمر اليهود إلى هذه اللحظة بأنهم أكثر الشعوب وأكثر الناس انبهارًا وتأثرًا بالماديات، قالوا: {لن نؤمن لك حتى نرى} لا يؤمنون بالغيب، لذلك كان أول وصف لأهل الإيمان أنهم: {يؤمنون بالغيب}.

فقال الله –سبحانه وتعالى–: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ}[الأعراف ١٤٨] أي: نعم، بالرغم من ذلك اتخذوه {وَكَانُوا ظَالِمِينَ}.

{وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[الأعراف ١٤٩]. كثير من أهل العلم قال إن أصل مكان هذه الآية بعد آية {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ}[الأعراف ١٥٠] لأنهم لم يعترفوا إلا بعد رجوع موسى، لكن تم تعجيل وتقديم هذه الآية مباشرة ليبين الله ﷻ عاقبة اتباع الهوى، وأن اتباع الهوى يؤدي إلى الندم.

{وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ}[الأعراف ١٤٩] ما معنى {وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ}؟

هذا التعبير أعيا وأتعب كثيرًا من المفسرين. قمت بعمل بحث واستقراء في حوالي عشرين تفسيرًا، حول هذا المعنى، وبعض أهل العلم قال: "إن هذا من مبتكرات القرآن" وهذا مصطلح دائمًا يستعمله ابن عاشور، وذكر هذا الكلام الإمام الواحدي، وقال: إن هذا تعبير أول مرة يُذكر في القرآن، وأجمعوا أن معناه: الندم {وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ}[الأعراف ١٤٩] أي أنهم لما ندموا.

ولكن ما علاقة الندم بكلمة "سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ" ؟ **وهنا كان الخلاف على عشرة أقوال**، ولمن يريد أن يرجع للتفاسير؛ أوسع من تكلم في المسألة: الإمام الواحدي في (البسيط)، والرازي، وابن عطية، وابن عاشور، هؤلاء أوسع أربعة فَصَّلوا وسردوا الأقوال وردوا عليها.

سريعًا؛

- منهم من قال: إنه من الأسر، وهذا اختيار الإمام الطبري: أن الذي يقع أسيرًا عند إنسان يسقط بين يديه، فيستسلم، {وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ}[الأعراف ١٤٩] علامة عجز وندم.
- وقال الزمخشري: {وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ}[الأعراف ١٤٩] حينما يندم الإنسان على شيء يضع فاه ورأسه في يده، ويَعضُ على يده، وينزل برأسه إلى يده. ف {سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ} كأن الرأس سُقِطَ في اليد.
- وقيل: هناك محذوف معنوي، سُقط في الأيد: أي الندم نَزلَ في اليد، وأصبح الندم حاضرًا بين يديه.

- وقيل: البلاء سُقِطَ في يديه.
- وقيل: سُقِطَ في يديه، وكأن هناك شيء وقع في يديه فجعل اليد مشلولة، فـ{سقط} هناك شيء ضخم نزل في اليد، و{سُقِطَ} مبني للمجهول، فما الذي وقع في اليد؟ قالوا: شيء عظيم جعل اليد مشلولة، فأصبح الإنسان عاجزًا لا يستطيع أن يُفكر، وكان في حالة من الندم واليأس.
- وقيل: (سُقِطَ في يديه) أي معه الشيء التافه، الشيء الساقط هو الشيء التافه، (سُقِطَ في يديه) أي علموا أن ما فعلوه أمر تافه لا يستحق فندموا.

كل هذه أقوال وغيرها ولها تفصيل طويل. والشاهد: إجماعهم على أن معناها (الندم).

- {وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} هل قبل الله توبتهم؟

هناك فارقٌ ذكرناه في بداية السورة مع قصة سيدنا آدم، وهو: **فارق بين قبول التوبة وتبعات المعصية** أو تحمل تبعات المعصية، مثل: قبول توبة آدم وبالرغم من ذلك تم إنزاله من الجنة، فهذه تبعات المعصية.

ومثل: الذي كان يشرب المخدرات ثم تاب، قد قَبِلَ الله توبته، ولكنه سوف يعاني ويُكابد ويُكافح للتخلص من السموم التي في البدن، وهذا أثر دنيوي للمعصية وهو أثر مباشر. ومثل أثر الأكل من الشجرة التي كانت في الجنة، فالأثر كان النزول، فهذا أثر مباشر للأكل.

وهل بعدها سوف يُتاب عليك؟ نعم، وكان من توبة الله أن أنزل الله له هدى يسير به في الأرض، فيتوب الله على كل من تاب، ولكن لا بد أن يُكفِّره. ما هو التكفير؟ سوف يذكره الله ﷻ، أو سيذكر ضمنًا، وسوف أذكر أقوال أهل العلم فيه.

{وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا} [الأعراف ١٥٠] فعلًا شيء مؤلم على الداعية المصلح المربي أن يكون في لحظات مع كلام الله ﷻ....، تخيل أن تكون عائدًا من اعتكاف فتجد مثلًا الناس الذين كنت تدعوهم قد عبدوا الأصنام في غيابك!

فعندما كان سيدنا موسى عائدًا من الميقات فوجئ -وذلك في رواية أظن ذكرها الطبري عن ابن عباس- وهو يسمع أصوات أناس يعبثون، فقال: هذه أصوات قوم لاهين! هؤلاء ليسوا بمؤمنين، فأخبره الله ﷻ : {قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ}[طه ٨٥] وتماسك سيدنا موسى حينما سمع الخبر، وأمسك الوحي.

فلما وصل وجد قومه، فألقى الألواح، لذلك قال النبي ﷺ في هذه اللحظة: (ليس الخبر كالمعاينة)[٩]، لأنه حينما سمع موسى من ربه أن الله ﷻ قد فَتَن قومه لم يُلقي الألواح ولكنه لما رآهم ألقى الألواح! لأن تأثير رؤية الشيء صعب على الإنسان. فقد يعلم الشخص شيئًا ما ولكن حينما يراه يتأ لم أكثر! (ليس الخبر كالمعاينة).

{وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[الأعراف ١٥٠].

{فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا}[الأعراف ١٥٠] (الأسف) تكلم عنه أهل اللغة كثيرًا، بعضهم قالوا: غضب، وبعضهم قالوا: حزن.

ومن قال إنه (غضب)، قيل لهم: كيف يكون غضبان أسفًا؟ قالوا: أي غضبان وهو في شدة الغضب، فالأسف هو شدة الغضب، {فَلَمَّا آسَفُونَا}[الزخرف ٥٥] أي: أغضبونا، وهناك أثر مروي عن النبي □، أظنه في سنن أبي داود حسَّنه بعض أهل العلم: (أن الموت الفجأة أخذة أسف)[١٠] حين يغضب الله عن إنسان يأخذه أخذة أسف! وهذا ليس على كل الناس ولكنه مروي في سنن أبي داود.

- فقالوا: الأسف يأتي بمعنى الغضب.
- وقيل: الأسف يأتي بمعنى الحزن، وهذا هو الأشهر في اللغة.

[٩] [عن عبدالله بن عباس:] ليس الخَبَرُ كالمُعايَنةِ قال اللهُ لموسى: إنَّ قومَكَ صنَعوا كذا وكذا فلمّا يُبالِ فلمّا عايَن ألقى الألواحَ
ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٦٢١٣ • أخرجه في صحيحه

[١٠] [عن عبيد بن خالد السلمي:] موتُ الفجْأةِ أخذةُ أسَفٍ
ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢)، موافقة الخبر الخبر ٣١٧/١ • إسناده صحيح • أخرجه أبو داود (٣١١٠)، وأحمد (١٥٤٩٦)

فكأن موسى -عليه السلام- جمع بين شعورين؛ غضبان وحزين، غضبان لله -سبحانه وتعالى-، وحزين على قومه، لماذا تفعلون ذلك؟ {غَضْبَانَ أَسِفًا}[الأعراف ١٥٠]، شعورين بداخل الإنسان المصلح حينما يجد أناسًا على باطل، فهو يغضب لله ويحزن عليهم.

{قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي}[الأعراف ١٥٠] أتأخر عليكم عشرة أيام -لأنه واعدهم بأنهم ثلاثين يومًا-، وما كان هذا ظني بكم! {مِن بَعْدِي} حين تخلفت عنكم!

هذه الجملة نخشى أن يقولها لنا النبي ﷺ يوم القيامة {بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي}! ماذا فعلنا من بعده ﷺ ؟ هل حافظنا على سنته؟ هل دافعنا عنها؟ هل ضحينا لأجل نصرة هذا الدين؟ كلمة مؤلمة!

{بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي} لماذا فعلتم ذلك؟! {أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ}[الأعراف ١٥٠]؟؟

❖ ما معنى {أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ}[الأعراف ١٥٠] ؟

قال بعض أهل العلم: أعجلتم قدومي؟ أنا واعدتكم أنني سأعود إليكم، ولكنني تأخرت عليكم عشرة أيام فقط! والذي يربط إيمانه بشخص غالبًا يسقط! فالشخص لن يبقى معك!

- وقيل: {أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ} {أمر ربكم} أي عذاب ربكم، أتريدون أن تستعجلوا العذاب!
- وقيل: {أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ} أي حينما لم تأتكم التوراة استبدلتم التوراة -التي وَعدتكم أنني سآتي بها- بشرعٍ أرضي! أي: استعجلتم أمر شرع من عندكم.

{أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ} فغضب موسى عليه السلام {وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ}!

تخيل! موسى عليه السلام الذي كان فرحًا بكلام الله؛ الآن يُمسك بالألواح التي فيها كلام الله ﷻ ويلقيها! هذه دلالة على قمة الغضب التي كان فيها موسى عليه السلام.

{وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ}[الأعراف ١٥٠] هذا أخوه الذي يحبه، الذي طلب من الله -عز وجل- أن يكون وزيرًا له، مساعدًا له، نبيًا معه، مشاركًا له {وأشركه في أمري}!

ملمح هام هنا؛ التقاط هذا المشهد {وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ}[الأعراف ١٥٠] لا يصلح أنك تحكم على شخص! فحين تلتقط مشهدًا لأحد المصلحين أو لأحد الدعاة وهو في غضب -أو في حالة نفسية معينة- ويفعل فعلًا أنت لا ترضى عنه، لا يصلح للتعميم.

وهذه إشكالية؛ مثلًا: فلان غضب أو أخطأ في محاضرة ما، أو تكلم في لحظة غضب، أو في لحظة فرح شديد لم يسيطر فيها على مشاعره، ثم تأتي وتحكم عليه في هذه اللحظة حكمًا مطلقًا! هذا لا يصلح! كالذي يجتزئ هذه اللحظة من حياة مليئة بالمناضلة والمجاهدة من أجل نصرة الدين، مثل حياة موسى عليه السلام.

{وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ}[الأعراف ١٥٠] لأنه قال لهارون عليه السلام: {اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي}[الأعراف ١٤٢] والخليفة أو المستخلَف لا بد أن يفعل مثلما يفعل المستخلِف، ووجود موسى عليه السلام كان يمنع من فعلهم هذا، لأنهم هموا بهذا الفعل من قبل وقالوا: {اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}[الأعراف ١٣٨] فقطع موسى دابر هذا الكلام.

فلما هموا بهذا الفعل في غياب سيدنا موسى؛ استطاعوا، فغضب موسى، لماذا لم تمنعهم كما أنا منعتهم؟! وهنا تظهر عدم ملاحظة الفروق بين الناس! لا يجب أن تحاسب الناس بقدر قدراتك! فهو -هارون عليه السلام- أقل من ذلك! فهناك أمور يكون فيها {أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا}[القصص ٣٤]، ولكنه يكون أقل في أمور أخرى! وهذا من توزيع الأرزاق بين العباد.

{وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ}[الأعراف ١٥٠] موسى عليه السلام لم يلتفت إلى الناس لكن قدَّم غضبه للشرع.

قال هارون عليه السلام: {قَالَ ابْنَ أُمَّ} وذكر الأم استعطافًا، وقيل لأنها كانت مؤمنة، {قال ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي}[الأعراف ١٥٠] وكأنه يقول: إنني لم أسكت، فقد حاولت وأنكرت ولكني كنت ضعيفًا.

{إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}[الأعراف ١٥٠]، فأنت قلت لي لا تفرق بين بني إسرائيل، وإن جمعتُ جيشًا وحاولتُ قتالهم كنتُ سوف أقتل، وإن تركتُهم وتَبِعتُك وأتيتُ إلى الميقات فلن يكون بينهم مُصلح وكانوا سيكفرون مطلقًا!

فهنا سيدنا هارون عليه السلام اجتهد في هذه الفتنة، **وارتَأى أنه لا يستطيع المواجهة**، ولحظات من الانتظار وسوف يعود موسى ويستتب الأمر مرة أخرى، فهنا اجتهد هارون عليه السلام، ولكن موسى عليه السلام رفض هذا الاجتهاد، لأنه رأى أنه كان عليه القتال وإن قتلوه.

في أوقات الفتنة قد تختلف الاجتهادات، فلا تفرض وجهتك، وأنا لا أتكلم عن الأنبياء الآن، ولكني أتكلم عن واقعنا نحن، فأحيانًا تحدث فتنة، فمنهم من يرى المواجهة، ومنهم من يرى عدم المواجهة، وهناك اختيار ثالث مرفوض تمامًا وهو أن تكون مع السامري (مثل أن تأخذ صورة مع العجل، وقد تكلمنا عن هذا في المجلس السابق).

فاختيار المواجهة أو عدم المواجهة مبني على المصالح والمفاسد، القوة والحسابات، وقد رفض سيدنا هارون عليه السلام المواجهة، وقال: {إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي}[الأعراف ١٥٠].

وكلمة (كاد) في اللغة بحر طويل قد نشير إليها، وقد كُتِبَ عنها كُتُبٌ كثيرة، خلاصةً؛ بعضهم قال: (كاد) المثبتة تفيد النفي، و(كاد) المنقية تفيد الإثبات، فكلمة {وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي} أي: لم يقتلونني لكنهم همُّوا بذلك وقاربوا، و(كاد) المنفية تفيد الإثبات مثل: {وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ}[البقرة ٧١] في سورة البقرة، فهم قد ذبحوا البقرة ولكنها جاءت منفية، وكلمة {لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا}[النور ٤٠] كثير من أهل العلم قالوا: لم يُقارب الرؤية وليس فقط لم يراها! والشاهد: كلمة (كاد) حولها كلام طويل عند أهل اللغة.

فهارون عليه السلام ارتَأى –اجتهادًا– عدم المواجهة في زمن الفتنة لأنها خارج استطاعته، وأن الحل هو الانتظار، فلم يتعجل المواجهة، ولكن في حالة إن كان يتوقع سيدنا هارون عليه السلام أن سيدنا موسى عليه السلام لن يعود أبدًا؛ سيكون مُطالبًا بأن يأخذ القيادة كليًا ويكون بيده القرار.

الشاهد: في زمن الفتن قد تختلف الاجتهادات، فليَعذُر بعضنا بعضًا في الاجتهاد في زمن الفتنة.

{قال ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي}[الأعراف ١٥٠] وهنا تجد المفسرين انقسموا قسمين؛ قسم وافق هارون على اجتهاده وهذا الأغلب، وقسم قليل من المتأخرين ومنهم ابن عاشور – اشتد في كلامه، وكان الأصل أن يتلطف خاصة وأنه كلامٌ عن الأنبياء– انتقد موقف هارون عليه السلام، ولكن لم يجرأ أحد من المتقدمين على الكلام بمثل طريقته إلا الزمخشري، كعادته أحيانًا في الكلام عن الأنبياء.

الشاهد: اختلف المفسرون ولكن الجمهور أقروا فعل هارون عليه السلام، وقالوا حينما اعتذر سيدنا هارون قَبِل سيدنا موسى اعتذاره وتوجه بالدعاء {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}[الأعراف ١٥١]، فإن كان سيدنا موسى يرى أن هذا العذر غير كافٍ كان سيعاقب هارون.

{فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ}[الأعراف ١٥٠] **يجب أن نكون في صف واحد ولا نفترق أمام الأعداء،** {فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[الأعراف ١٥٠] ومن المهم جدًا افتراق الصفوف، وكأنه يقول: اختلافنا لا يعني أنني معهم! فأنا لم أذهب مع السامري، ولم أصفق للعجل، ولم أكن معهم، فلا تجعلني معهم!

إذًا؛ لدينا ثلاثة مواقف: موقف من اختار المواجهة، وموقف من اختار عدم المواجهة، وموقف مساندة السامري وهذا منفصل تمامًا، فلا بد لهؤلاء أن يجتمعوا.

قال: {فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[الأعراف ١٥٠] حينها توجه موسى عليه السلام لربه وقال: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي}[الأعراف ١٥١] من إلقاء الألواح وأخذي برأس أخي، {وَلِأَخِي} أي: أيضًا اغفر لأخي وإن كان قد قصَّر في الإنكار.

{وَأَدْخِلْنَا}[الأعراف ١٥١] وهذا الدعاء كان أمام الناس، حتى يرى هذا من شَمَت في هارون وقال: انظر ماذا فعل بك موسى! فهنا أراد أن يصحح موسى هذه الفعلة.

ومهم جدًا الظهور متعاونين أمام العدو، قال: {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}[الأعراف ١٥١]، ثم أخبرنا الله ﷻ عن عقاب الذين اتخذوا العجل، وهذا ما سنذكره بإذن الله المرة القادمة.

أسأل الله ﷻ أن يستعملنا، ولا يستبدلنا. أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.